الأبعاد الأيديولوجية في النادرة الجاحظية قراءة تأويلية

The Ideological Dimensions in Al-Jahiz's Rare: An Interpretive Reading

د. امباركة مصطفاوي[1،*]، ط.د العطرة الوشعي[2]

[1]جامعة الوادي ، (الجزائر)، mostefaoui20172018@gmail.com

[2]جامعة الوادي، (الجزائر)،LOUACHAILATRA@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/08/11 **تاريخ المراجعة**:2022/04/30 **تاريخ النشر**: 2022/06/15

ملخص:

قوام الأيديولوجية الاتجاه الفكري للإنسان، مشبع برؤيته للعالم تغلب عليه طاقة إيحائية مكثفة عاكسة لجوانبه السياسية والاجتماعية، والدينية، والفلسفية، والثقافية...، وباعتبار النادرة شكل سردي فكاهي تتجلي في ثناياه عناصر التواصل بين المرسل والمتلقي، فكيف عكست هذه الاتجاهات المنطق المسكوت عنه لهذا النص الجاحظي للمتلقين؟ وما مدى نجاعته في إماطة اللثام عن تلك الأبعاد الأيديولوجية المتداولة و المبثوثة فيها؟ لتحقيق التوازن النفسي والأيديولوجي لرؤية الناقد والمجتمع برمته.

الكلمات المفتاحية: النادرة،الأيديولوجية،القراءة، البخل، تأويل.

Abstract:

The strength of the ideology is the intellectual direction of the person; saturated with his vision of the world;dominated by an intense suggestive energy; reflecting its political, social, religious, philosophical, and cultural aspects. Considering the rare as a comic narrative form that reflects in its birth the elements of communication between the sender and the recipient, we ask how did these trends reflect the silent logic of this text of Al-Jahiz for the recipients? What is the extent of his success in uncovering those ideological dimensions that are circulating and being studied in them to achieve the psychological and ideological balance of the critic's vision and society as a whole.

***Keywords**:ideology, interpretation, rare, reading, stinginess*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

ألّف الجاحظ كتابه "البخلاء " ليكون بذلك أوّل من خصص كتابا كاملا للحديث عن ظاهرة أو سلوك إنساني ذميم، موجود في الناس عامة، مقدّما لهذا السّلوك الذّميم بشكل هزلي ساخر يبعث على الضّحك والتّرفيه في نفوس متلقّيه، كتاب حاوٍ لأشكال سرديّة متنوّعة ذكرها في مقدمة كتابه:« ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيُّن حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مللت الجد»1، وتتميّز جل القصص الواردة في كتاب البخلاء على اختلاف أنواعها- نادرة وطرفة ورسائل- بقصرها واحتوائها على حيل وصفات وحجج الفريقين الذّام للبخل والمدافع عنه، غير أنّ هذا النوع من المؤلفات يحتاج إلى محاولة قراءته وسبر أغواره لاستنباط وتأويل الأفكار والرؤى المبثوثة في بنيته العميقة، والتي لا تستخرج من ظاهر النص، بل تحتاج لإمعان فكر وملئ فراغات موجودة في ثناياه، حتى يتسنّى للقارئ بلوغ الهدف الرئيسي الذّي أُلّف الكتاب لأجله، فالجاحظ لم يؤلف هذا الكتاب فقط للترويح عن نفس المتلقي وطرح قضية هامة "البخل" بشكل فكاهي سطحي؛ حيث نعثر على أبعاد مختلفة تعكس الحياة العباسية في مختلف اتجاهاتها: سياسية، اجتماعية، دينية، ثقافية وغيرها ، ما يجعل الباحث أمام نصّ قابل للقراءة والتأويل.

أولاً- مصطلحات الدراسة:

1- النادرة:

اشتقت من (ن.د.ر) ومن قولنا «ندر الشيء سَقَطَ وقيل: سقط من خَوْف شيء أو من بني شيء أو من جوف شيء أو من أشياء فَظَهَرَ، ونوادر الكلام تندُرُ، وهي ما شذَّ وخرج من الجمهور، وذلك لظهوره»2، فهي إذن الكلام الشاذ، الذي سقط عن بعضه من الكلام العادي المتداول «بمعنى خلاف الفصيح المعروف على الأغلب، أي خرج من السهل المستعمل على ألسنة الناس»3، وقد أخذت النادرة حيزا واسعا في الأوساط الشعبية في العصر العباسي، بل حتى في بلاط الأمراء والملوك لما كانت تحمله من متعة وفائدة، وما المكانة التي لقيها مؤلف "البخلاء"في الأوساط الراقية باعتباره مصنّفا في الأدب المكتوب وأدب الطبقة الراقية إلاّ دليل على ذلك.

2- الأيديولوجيا:

مصطلح واسع ينتمي لحقول معرفية مختلفة؛ حيث تختلف تعريفاته باختلاف المرجعية الفكرية، فمفهومه في علم النفس يختلف عنه في علم الاجتماع أو الفلسفة وغيرها، فيما منح له تعريف عام يتقاطع مع جميع هذه العلوم والاتجاهات؛ حيث: «يرجع أصل كلمة "أيديولوجيا"Ideology إلى مقطعين: idea التي مرت بدلالات كثيرة قبل أن تدرك معنى"الفكرة"، ومن هذه الدلالات: الشكل والمظهر، والصنف، والطبيعة...، والمقطع الآخر:logy الذي يدل على فكرة العلم أول المنهج المعرفي، أو الفكري، إلاّ أنّها مشتقة من الكلمة اليونانية logos، أمّا في قاموس أكسفورد الانجليزي فلم ينص على هذه الدلالة الحديثة إلاّ في ملحقه الذي طبع سنة 1976؛ حيث عرف الأيديولوجيا بأنّها نظام أو منظومة "System" منهجية للأفكار تتصل عامة بالسياسة أو المجتمع، وبسلوك طبقة أو جماعة»[4]، غير أنّ ما يهمّنا في هذا المقام هو ما ذهبت إليه الدّراسات الأدبيّة في تعريفها ورؤيتها للأيديولوجية، ومن ذلك ما نجده عند "لوسيان غولدمان" الذي تحدّث عنها في خضم كلامه عن العلاقة بين

الأدب والواقع مقرّا بوجود علاقة مباشرة بين البني الاجتماعية – الاقتصادية من جهة والأدب من جهة أخرى باعتباره عاكسا وناقلا لها[5].

رؤية وافقتها المدرسة السيميائية الإيطالية، وأبرزها" امبرتو إيكو" في كتبه المختلفة ككتاب" القارئ في الحكاية"، مؤكدا على وجود أبعاد أيديولوجية في النصوص السردية ولا تحتاج من القارئ سوى توظيف موسوعته الفكرية لاستنباطها من البنى النصية بفراغاتها وانزياحاتها المختلفة.

3- القراءة:

يهمنا في هذا المقام الحديث عن فعل القراءة في الدّرس النقدي الأدبي، دون الإشارة إلى أبعاده الأخرى على اختلافها: فيزيولوجية، ومعرفية، وعاطفية وغيرها؛ حيث كان النقد الأدبي في فترات سابقة يركز على دراسة العلاقة التي تربط النّص بمبدعه وتحليل التبادل الحاصل بينهما- في البنيوية والسيميائيات التي ركزت على النص مهملة القارئ-، ثم انتقلت الدراسات النقدية (ما بعد الحداثة)إلى التركيز على العلاقة بين النص ومتلقيه، والعلاقة الجدلية التي تتكوّن بينهما، من خلال التركيز على الأبعاد الجمالية للنص الأدبي وعملية التفكيك، والتأويل التي يقوم بها قارئه من خلال تفكيكه للفراغات والانزياحات النصية التي تركها صاحب النص في ثنايا عمله الأدبيّ، وأبرز من مثّل هذا الاتجاه أصحاب مدرسة كونستانس الألمانية، وبخاصة "أيزر" الذي أسّس رؤيته على مفهوم هام هو: "القارئ الضمني أو المستتر" الذي يقوم بسبر أغوار النص لبلوغ المعنى المبثوث به من خلال توظيف موسوعته الفكرية والثقافية، وملئ الفراغات النصية، والتوقعات التي يبنيها قارئ النص له، والتي قد تتحقق أحيانا وتكسر أحيانا أخرى، والأمر ذاته ما ذهب إليه الباحث الإيطالي "أمبيرتو إيكو" في كتابه الموسوم ب"القارئ في النص" حين تحدث عن "القراءة المتعاونة" التي تبنّاها والغاية منها« دراسة كيف يبرمج النص شكل تلقيه ودراسة ما يقوم به القارئ وبالأحرى ما ينبغي أن يقوم به القارئ الفطن كي يستجيب على نحو حسن للنداء الكامن في البنية النصية»6.

وعليه فإنّ القارئ الذي عناه كل من "أيزر" و"إيكو" هو القارئ النّموذجي العليم لا القارئ السّاذج الذي يكتفي ببنية النّص السّطحيّة، ولا يوظّف معارفه وموسوعته لتحليل فراغات النص وانزياحاته، التي تمثّل جماليّة النص المقروء، فصاحب النص يضع في حسبانه قارئًا مفترضًا يوجّه إليه عمله، وبهذا تكون عملية القراءة نشاطا يقوم على التفاعل بين النّص وما يحمله من مكنونات وضعها صاحبها به من جهة، وبين القارئ الذي يحاول استنباطها من جهة أخرى.

البخل:

ألّف الجاحظ نوادر عديد أبرزها ما نجده في كتاب "البخلاء" الذي صنّفه بعض الباحثين في خانة الأدب الساخر والبعض الآخر اعتبره عبارة عن مؤلف يحوي مجموعة من النوادر، إلاّ أنّ المميز في هذا الكتاب أنّه يعالج موضوعا واحدا هو: البخل باعتباره ظاهرة ذات بعد إنساني منتشرة في البيئة العباسيّة، والحديث عن البخل قديم قدم الإنسانية؛ حيث تحدث اليونان عنه في مسرحيات بلوتس في القرن الثاني قبل الميلاد وحديثا

في أعمال موليير في مسرحية "البخيل" سنة71688، كما لم يخلو التراث العربي من الحديث عن موضوع البخل الذي نجده في شعر الهجاء كمقابل للكرم في شعر المدح في عصر ما قبل الإسلام8.

وقد تعددت التعريفات المتعلقة بمادة "بخل"في المعاجم العربية ومن ذلك ما ورد في اللسان:« البُخل والبَخل: لغتان وقُرِئَ بهما، والبُخل والبخول: ضد الكرم، والجمع: البخلاء»9.

وباعتبار البخل ظاهرة تعكس جانبا من النفسية الإنسانية، فإننا نجد له تعريفات متعددة في المعاجم الغربية أيضا، و لم تخرج عن ثلاث نقاط هي[10]:

- تمسك مبالغ فيه بالمال.
- عاطفة تكديس المال.
- عاطفة احتجاز الثروات.

4- التأويل:

كان لمصطلح التأويل وجود في التراث العربي القديم، حيث ورد عند الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت 175 ه)، حين عرّفه بقوله والتّأويل: «تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصح إلا ببيان غير لفظه»[11].

وهو بهذا التعريف يتبين أنّ الألفاظ قد تخرج عن معانيها الأصلية أو تتعدّد إلى أكثر من معنى والذي لا يُحدد ويُؤول إلاّ بربطه بالسياق وهذا ما ينجز عنه التعدد في التأويلات.

كما ورد في عدة معاجم أخرى بمعنى الرجوع: وهو من الأول، يقال آل الشيء، يؤول أولا ومآلا أي: رجع وأول إليه الشيء رجعه يقال: أوّل الحكم إلى أهله، ردّه إليهم[12].

وقد عرّف الباحث حامد أبو زيد التأويل فقال: «الرجوع إلى الأصل وتعني أيضا الوصول إلى الغاية والعافية، والذي يجمع بين الدلالتين هو الصيغة الصرفية "تفعيل" على الحركة»[13].

فالتأويل من خلال التعريفات السابقة هو محاولة فهم المعنى الموجود في بنى النص العميقة، والذي يختلف تحديده باختلاف القراء والمتلقين لاختلاف موسوعاتهم الفكرية والأيديولوجية.

ثانياً- تحليل طرف العنبري و أبي قطبه فيلويه:

البخلاء كتاب ثري بأشكال سردية مختلفة، ضمّنها الجاحظ رؤاه ومواقفه ممّا هو حاصل في الحاضرة العباسية آنذاك، وفي هذا المقام سنحاول تحليل نموذج من نوادره، والبحث في أبعادها الأيديولوجية المخفية في بناها العميقة، أبعاد تستوجب من القارئ أو المتلقي إمعان فكره وتوظيف موسوعته لاستنباطها، محاولة تكون في مرحلتين اثنتين : أولى سطحية تمثلها القراءة الدلالية وثانية عميقة تجسّدها القراءة السيميائية.

فيما يلي سنحاول تحليل نموذج لنوادر الجاحظ معنونة ب"**طرف العنبري و أبي قطبه فيلويه**":

1- التأويل الدلالي السيميوزي(قراءة دلالية):

سنحاول في هذا المقام تحليل البنى السطحية الواردة في النماذج القصصية المختارة، محاولين ربطها بالأبعاد الثقافية والاجتماعية، والدينية، والسياسية التي عاصرها الجاحظ وحاول الإشارة إليها في قصصه انطلاقا من قسمين اثنين هما:

أ- التمظهرات المعجمية وأحوال التلفظ:

تحوي قصص البخلاء في طياتها مجموعة من اللكسيمات الحاملة لمفاهيم وتصورات توحي بدلالات مفتوحة تختلف وتتعدد باختلاف القراء، ويمكن تصنيفها ضمن ثلاث مجموعات رئيسة هي: الشخصيات والأمكنة، والتصورات أو المفاهيم.

- **الشخصيات:**

الشخصية عنصر هام من عناصر البناء السردي التي لاقت اهتماما في الدراسات الحديثة، واختلافا في دراستها فمنهم من نظر إليها من جانب اجتماعي وآخرون منحوها بعدا سيكولوجيا، واعتبرها البنيويون علامة، فيما نظر إليها كل من بروب وغريماس باعتبارهاعوامل[14]، وفيما يلي سنحاول دراسة الشخصيات في الطرف المختارة:

طرفة العنبري: لهذه الطرفة شخصية رئيسة سردية هي "العنبري"، بخيل مانع يمنع الجارية من ملئ كوب الماء، يبقى حاضرا لنهاية القصة، يؤدي دور البخيل الذي يمنع الجارية من ملئ كوب ماء فارغ، ويعطي المرضعة نواة التمر لتلوكها فحسب.

كما حوت الطرفة شخصيات فرعية تتمثل في شخصية الأم شخصية غير مشاركة في سرد الأحداث، بالإضافة إلى الجارية التي حدث بينها حوار مع العنبري حول الماء، والمرأة النفساء التي مارس عليها العنبري البخل بمنحها نواة التمر فقط لتلوكها.

طرفة أبو قطبة: قطبة شخصية أساسية حقيقية، من ولد عنتاب بن أسيد بن أبي العيص من الصحابة[15]، يمثل نموذجا لموضوع البخل، بخيل مُعْتَدٍ شخصية بطلة في الطرفة، ناصح مرشد للبخلاء، يحاجج عن وجهة نظره، غنيّ شديد البخل، يظهر في منزله مثال للبخيل ويبقى حاضرا لنهاية الطرفة، كيف لا وهو من يؤدي دور البخيل الذي يؤجل تنظيف قناة صرف المياه الخاص به إلى وقت السيل بهدف التخفيف من تكاليفها، ويحاول أنْ ينصح الناس بالانتباه على ملابسهم وما يفسدها، بلغ به بخله حد الاهتمام بتفاهات الأمور(الريح عطر وهواء خارجا من الانسان)، وكان لهذه الطرفة شخصيات فرعية مجهولة اكتفى الراوي بتسميتها برجال.

طرفة فيلويه: تدير أحداث هذه الطرفة مجموعة من العجائز باعتبارهن شخصيات مشاركة في الأحداث باجتماعهن في مأتم، أما شخصية أم فيلويه فتمثل الشخصية السردية الركيزة التي ستجسد بكلامها البخل الشديد الذي يمتاز به ابنها، فتكون بذلك ضحيّة للبخيل وهي امرأة صالحة كبيرة بالعمر، تظهر في مأتم كمثال للأمم التي تكون ضحية لبخل ابنها(عقوق) تبقى حاضرة لنهاية القصة.

أما ابنها "فيلويه" فيمثل شخصية سردية ثانوية، نموذج للبخل صاحب محل يظهر النّسك والوقار ويدين بالبخل، عاق بوالدته بسبب بخله،بخل يظهر في القصة التي روتها أمه عنه؛ حيث يعطي أمّه درهما كل أضحى ثم يقطعه عنها(يمكن أن يكون مثالا للشيخ المنافق العاق لوالديه).

- **الأمكنة:**

اهتمت الدراسات السردية الحديثة بالمكان، معتبرة إياه ركيزة في تحليل النصوص ودراستها؛ إذ يرتبط بشكل مباشر بالأحداث التي تقوم بها الشخصيات في القصص، مُعَرِّفِينَه بقولهم:« لخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية»[16]، وقد تعددت الأمكنة الواردة في قصص البخلاء ومن الأمكنة الواردة في الطرف المختارة نذكر :

- **البيت:** ورد ذكر البيت كثيرا في قصص البخلاء ومن ذلك ما نجده في طرفة العنبري، باعتباره المكان الذي جرت فيه أحداث قصته، ففيه استقبل جارية أمّه وساومها عن الماء وفيه أيضا تم سرد حادثة أكله للتمر ومنح النفساء(امرأة حديثة الولادة) النواة فقط رغم أنها في حالة مرض تحتاج إلى الغذاء لاستعادة عافيتها.
- **المجلس:** في النماذج المختارة كان للمجلس حضور قوي؛ حيث سردت أغلب الأحداث في مجلسين:

الأوّل مجلس رجال من قريش والذي حاول فيه أبو قطبه الدفاع عن مذهبه في البخل مقدّما أمثلة وحجج لإقناع المتلقين.

أمّا الثاني فكان مجلس العجائز الذي أجمعت فيه عجائز الحيّ للقيام بالتعزية والذي دارت فيه قصة أم فيلويه مع ابنها الذي كان شديد البخل.

- **الحي:** ورد ذكر الحي كتسمية فقط دون الإكثار من التفاصيل المتعلقة به؛ حيث جاء فقط في سياق الحديث عن وجود جنازة في الحي الذي تسكنه أم فيلويه.
- **الطريق:** قام السارد بتقديم بعض الأحداث المرتبطة بهذا المكان معتمدا تقنية الوصف في قصة أبي قطبه وحكايته مع البالوعة.

والملاحظ تنوع الأمكنة الواردة في النماذج المختارة بين المفتوحة كالحي والمغلقة كالبيت.

- **التصورات والمفاهيم:**

تحمل النماذج الثلاث المختارة مجموعة من المفاهيم والتصورات المتداخلة، والمتباينة أحيانا أخرى منها نذكر:

- **الحزن والاكتئاب**: بدا جليا الاكتئاب على أمّ فيلويه عندما سمعت قصص بر الأبناء بأمهاتهم بخلاف ابنها الذي كان عاقًّا لها ولا يمنحها حقَّها الذي فرضه الله عليه وهو البرّ بالوالدين ورعايتهما والذي ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم.
- **الجشع:** تجلى سلوك الجشع في سلوك العنبري مع جارية أمّه إذ طلب منها أنْ لا تأتي بكوزها فارغا حتى يمنحها من مائه، وما طلبه هذا إلاّ دليل على جشعة فكيف لابن أنْ يطلب ذلك من أمّه؟، كما تجلى أيضا في سلوكه مع المرأة النفساء فلولا جشعة لكان عليه أن يكون رؤوفا بحالها ويمنحها التمر كاملا لا النواة فقط لاستعادة عافيتها.

- **بر الوالدين:** حثّ الدين الإسلامي الحنيف عن برّ الوالدين وعدم عقوقهما، ظهر ذلك جليّا في قصة أم فيلويه حين بادرة كل عجوز إلى سرد برّ ابنها بعكس فيلويه الذي لم يكن بارا بوالدته، عقوق وضحته أمّه رغم اتصافه بالنسك نسك يخالف مذهبه "البخل".

- **الفرح:** يظهر الفرح جليًّا في الشّخصيات البخيلة عندما تحقق غايتها وتتمكن من بلوغ موضوع قيمتها ومن ذلك ما يظهر على شخصية أبو قطبة الذي كان فرحا لتوفير المال، والتقليل من مصاريف إفراغ قناة المياه خاصته رغم التأخر زمنا عن وقتها المطلوب.

- **الغضب:** يتحلى شعور الغضب في الطرف المختارة عند العنبري عندما صاح على المرأة عندما ظنّ أنّها قد لاكت التمر عند امتصاصها للتمر ناهيا لها عن ذلك، غضب ظاهر في قول الجاحظ في بخلاء:« فقلت للمكي: أكان يدع على النواة من جسم التمر شيئا؟ قال: والله لقد رأيتها لاكت نواة مرة بعد أن مصّتها، فصاح بها صيحة، لو كانت قتلت قتيلا ما كان عنده أكثر من ذلك»[17].

- **التحايل:** يتجلّى هذا التصور في السلوك الذي انتهجه أبو قطبه لتوفير المال من تنظيف بالوعة الماء؛ حيث كان يؤخر موعد تفريغها لوقت نزول المطر الغزير كي يجرف الأوساخ وينقلها إلى القناة فيقل عدد العمال ما ينجم عنه خفض في المصاريف.

ب- التمظهرات السننية: في هذه الجزئية سنقوم بالتركيز عن الأساليب البلاغية والأسلوبية، والأطر التناصية، وكذا دراسة وضعيات السارد أو الرؤى السردية للطرف المختارة.

- **الرؤية السردية:** هي الطريقة التي يتم بها إدراك القصة من طرف السارد أو الراوي، انطلاقا من الوسائل التي يختارها لتقديم القصة للمروي لهم، أو المتلقين عموما[18]، وقد اختلف الباحثون في تصنيفها من ذلك نذكر ما ذهب إليه "تودوروف" الذي ميز بين ثلاث أنواع لها هي: الرؤية من الخلف والرؤية مع، والرؤية من الخارج[19].

✓ **الرؤية من الخلف:** وفيها الراوي يعلم أكثر من الشخصية الحكائية، فهو سارد عالم بكل شيء وحاضر في كل مكان ويستعمل فيها ضمير الغائب، ويقابلها السرد الموضوعي عند "توماتشفسكي".

✓ **الرؤية مع:** ويتساوى في هذا النوع الراوي مع الشخصية الحكائية، ولا يقدّم إلّا ما توصلت إليه الشخصية نفسها، فلا الراوي جاهل بما تعرفه الشخصية، ولا الشخصية جاهلة بما يعرفه الراوي؛ فالراوي هنا إما شاهد على الأحداث أو شخصية مساهمة في القصة، ويستخدم في هذه الرؤية ضمير المتكلم في غالب الأحيان، وقد يستخدم ضمير الغائب شريطة تساوي معرفة السارد مع الشخصية، ويقابل هذا النوع السرد الذاتي بمفهوم "توماتشفسكي"، ومن النماذج المختارة نجد حضور هذا النوع من الرواة في طرفة العنبري، إذ أنّ الراوي المكي الذي سرد أحداث طرفة كان حاضرا وشاهدا عليها حاضرا في مجلسها، موظفا ضمير المتكلم في الطرفة؛ حيث افتتحها بالضمير "تُ".

✓ **الرؤية من الخارج:** الراوي في هذا النوع يعرف أقل ممّا تعرفه الشّخصيات الحكائية، فهو يصف ما يراه ويسمعه لا أكثر، فمعرفته خارجية بعيدة تماما عما يدور في ذهن الشخصيات، نوع تمثله طرفتي: أبو قطبه وأم فيلويه؛ حيث كان الراوي في كلا الطرفتين "الخليل"و"امرأة" واصفًا لما حصل من أحداث سمع عنها.

- **اللغة أو السنن:** تحوي قصص البخلاء عديد الظواهر اللغوية المميزة التي تضفي جوانب جمالية عليه، وتجذب القراء والمستمعين، ومما هو موجود في النماذج المدروسة نذكر:

✓ **الطباق:** امتاز الجاحظ في كتابه المبني على الأسلوب السهل الممتنع على توظيف الطباق، ومن ذلك ما جاء في الطرف المختارة: "فارغ- ملآن"، "برد- حر"، "طيبة- منتنة".

✓ **السجع:** اعتمد الجاحظ كثيرا في كتابه على السّجع، لما يضفيه هذا الجرس الموسيقي من جمال على القصص، وما له من دور في شد انتباه المتلقين، ومن ذلك ما نجده في طرفة العنبري"فرغيه في حُبّنا، ثم ...مزمّلتنا"،" إياكم ...فيها، وفي لحفكم...فيها".

✓ **الأساليب الإنشائية:** اعتمد الجاحظ على توظيف أساليب الاستفهام والأمر لما تؤديه من معاني الاستنكار والنهي، هادف إلى لفت انتباه المتلقين وشد انتباههم ودفعهم للتفكير، ومن ذلك ما نجده في طرفة العنبري حين وظف الأمر في قوله:« فابعث إليّ بشربة منها في هذا الكوز- اذهبي فاملئيه من ماء حُبّكم- فرّغيه في حُبّنا»[20]، كما نجد الاستفهام في قوله:« أكان يدع على النواة من جسم التمر شيئا؟»[21]، «قالت لها مالك لا تحدِّثين معنا عن ابنك كما يتحدثن؟- وما كان يجري عليك إلا درهما؟»[22].

ويمكن القول أنّ القراءة السيميوزية المقدمة تفتح الباب أمام تعدد التأويلات للنماذج المختارة ما يوجب علينا الانتقال إلى قراءة ثانية للخروج بدلالات محددة هي القراءة النقدية السيميائية.

2- **التأويل النقدي السيميائي(قراءة نقدية سيميائية):** *تهدف هذه القراءة إلى الإجابة على مجموعة من الأسئلة المفتوحة التي خلقتها القراءة السيميوزية، من خلال انتقاء محتويات سيميائية نصية عبر تحيين بنيات خطابية وسردية، وعامليّه وإيديولوجية، انطلاقا من الإجابة على مجموعة من الأسئلة هي: ماذا حدث؟ ويتم على مستوى البنيات الخطابية، والتي تحيلنا لسؤال آخر هو كيف حدث؟ من خلال البنيات السردية، هذان السؤالان اللذين لا تتطلب الإجابة عنهما تجاوز بنية النص، ومن ثم الانتقال إلى البنيات العاملية التي تتطلب الغوص في عمق النص وتحويلها إلى تقابلات دلالية تعبر عوالم النص المختلفة وأهوائها- شخصيات، أمكنة وغيرها-* [23].

أ- **البنيات الخطابية والسردية:** *سنحاول في هذه الجزئية تحليل الطرف المختارة ووضع متتاليات للأحداث الحاصلة فيها:*

- **طرفة العنبري:** طرفة تحوي قصتين تبرز البخل الشديد الذي يتصف به العنبري ولقصر هذه الطرف كانت متتالياتُه السردية بسيطة؛ حيث افتتح الراوي الطرفة بسرد أحداث وقعت عندما كان عنده في يوم من الأيام والمتعلقة ببخل العنبري على أمّه الذي بلغ حدّ منع الجارية من ملئ كوز ماء بارد لها دون أنْ تأتيه بمثله.

ثم قام بسرد قصة حصلت له مع امرأة حديثة الولادة والتي لم يشفق على حالها ومنعها التمر مانحا إياها نواة فارغة وتحرّيه لذلك.

- **طرفة أبو قطبه:** استهل الراوي "الخليل" حديثه بالإشارة إلى حالة اليسر التي يعيشها البطل باعتباره يمتلك ثلاثة آلاف دينار، ورغم ذلك يتصف بالبخل الشديد، بخل بدا جليّا في سلوكه وتحايله لتوفير المال من تنظيف بلوعة الماء

- **طرفة أم فيلويه**: استهل الراوي حديثه بالتّطرّق للمكان الذي ستتم فيه القصة، وهو مأتم في الحي؛ حيث اجتمع مجموعة من العجائز ثم انتقل للحديث عن موضوع كلامهنّ وهو سرد قصصهنّ مع أبنائهن وبرّهم لهنّ، حتى تطلب إحدى العجائز من أم فيلويه سرد حالها مع ابنها، فكان ردّها مخالفا لبقية النسوة ؛ إذ كان ابنها فيلويه ورغم اتصافه بالنسك ويسر الحال إلاّ أنّه كان من متبني مذهب البخل، بخل فاق كل التصورات مارسه على أمّه رغم أنّه سلوك منهيّ عنه في الدين والعرف الاجتماعي.

ب- **البنيات العاملية والأيديولوجية**: في هذه الجزئية سنحاول وضع المخططات التي توضح البنيات العاملية الخاصة بكل قصة من الطرف المختارة.

- **طرفة العنبري**: يمكن تجسيد هذه الطرفة في نموذجين عامليين هما:

النموذج الأول:

المرسل(المكي) ⟵ موضوع القيمة(عدم العطاء دون الأخذ) ⟵ المرسل إليه(الجاحظ+ المتلقين)

مساعد (حججه ودهاؤه) ⟵ الذات(العنبري) ⟶ معارض(الجارية)

النموذج الثاني:

المرسل(المكي) ⟵ موضوع القيمة(البخل في الطعام) ⟵ المرسل إليه(الجاحظ+ المتلقين)

مساعد(شدة بخله) ⟵ الذات(العنبري) ⟶ معارض(المرأة "ظئرة")

طرفة العنبري تجسد صورة الشخص شديد البخل بعكس اسمه الذي يحيل على العنبر والريح الطيب تصدر منه أفعال خبيثة لا تمتّ للعرف بصلة، بخل بلغ أقصى درجاته حدّ المنع عن الأهل سواء أمّه التي منعها الماء دون مقابل أو المرأة المريضة التي منع عليها التمر رغم مرضها وحاجتها له لتتعافى، طرفة يمكن أن تحيل أحداثها على ثنائية هامة هي "البخل والكرم"، بخل فاق كل الحدود والتصوّرات، وثنائية "الغضب والفرح" التي تعكس في غضبه حين شكه بأكل المرأة للتمر مع النوى وفرحه لعدم حدوث ذلك فجسد حالة البخيل المانع، حالة تتنافى وقيم الدين الإسلامي والمجتمع العربي قديما الذي يحث على البر بالوالدين وإكرامهما والعناية بالمريض ونجدته.

- **طرفة أبو قطبه**:

المرسل(الخليل) ⟵ موضوع القيمة(توفير المال) ⟵ المرسل إليه(الجاحظ+ المتلقين)

مساعد(المطر+ حججه) ⟵ الذات(أبو قطبه) ⟶ معارض(يسر حاله)

طرفة تعكس البخل الشديد الذي يتصف به "أبو قطبه" رغم حاله الميسور، وما تحايله في إفراغ ماء البالوعة إلاّ دليلة على شدة بخله، موظفا حججا وبراهين ليثبت مذهبه في البخل؛ حيث ساوى بين الريح الذي يخرج من الإنسان والعطر الذي يرش من القارورة معتبرا التعطّر نوعا من التبذير، كما انتقد غلاء أسعار المأكولات على اختلافها ومصيرها في البالوعة، فجسد بذلك حالة البخيل الجامع الذي يبخل نفسه من استعمال العطر ويحاول إقناع الآخرين برأيه، فهو يحرم نفسه شهوات الحياة في سبيل جمع المال وتكديسه غاية تمكن من بلوغها، فعلى الرغم من كون العصر العباسي عصر تحضر وتمدن إلاّ أنّ صاحبنا لا يهتمّ لذلك ويتمسك بما

يساعده على اكتناز المال وتوفيره، وفي ختام طرفته أشار إلى أصله الذي ينحدر من قبيلة تلتزم بتعاليم الدين الحنيف ومبادئ العرب الأصيلة، وهو ما غاب عنه في سلوكه بهذه الطرفة، ويمكن إدراجها في ثنائية الجزد التي يتصف بها العرب ويحث عليها الدين الإسلامي والبخل الذي صار ظاهرة منتشرة في الحاضرة العباسية، ولعلّ ذلك دفاع من الجاحظ عن العرب الذين أتصفو بالبداوة وغيرها من الأوصاف الجائرة معتبرا البخل صفة دخيلة عن العرب الأصيل اكتسبها من الحاضرة العباسية التي يسيطر عليها الفرس خاصة والعجم عامة تتجسد في ثنائية "الطبع والمكتسب أو الدخيل".

- **طرفة أم فيلويه:**

المرسل(امرأة) ⟵ موضوع القيمة(بر الوالدين) ⟵ المرسل إليه(الجاحظ+المتلقين)

مساعد(يسر حال ابنها وتنسكه) ⟵ الذات(أم فيلويه) ⟵ معارض(بخله الشديد)

طرفة تعكس وجها من الحياة العباسية وهي الاجتماع في الضراء، فكل عجائز الحي اجتمعن للقيام بواجب العزاء، وفي أثناء قيامهنّ بهذا الواجب تحدثت النسوة عن برّ الوالدين فتداولن على سرد قصصهنّ مع أبنائهنّ وقام الراوي فيها بالحذف إذ اختصرها ولم يذكرها جميعها، ثم انتقل للحديث عن قصة أم فيلويه صاحبة الطرفة، والتي انطلقت بسؤال إحدى العجائز لها عن حالها مع ابنها، فما كان منها إلاّ ان تسرد العقوق الذي مارسه ابنها عليها نتيجة تبنّيه مذهب البخل، بخل يتنافى وشخصيته باعتباره ميسور الحال ويتميّز بالنُّسك، طرفة أراد الجاحظ من خلالها تصوير حالة الانحطاط الأخلاقي التي يعيشها الفرد العربي في الحاضرة العباسية؛ حيث تخلّى عن مبادئه وقيمه الدينية والاجتماعية، ما يحيل على أصله الكريم واكتسابه للبخل وسوء الأخلاق من المجتمع العباسي الذي تأثّر بشكل كبير بالعجم عامة والفرس خاصة.

خاتمة:

في نهاية الدراسة نخلص إلى ما يلي:

- تعكس الأيديولوجيا العلاقة بين الفكر والسلوك.

- شكلت الأبعاد الأديولوجية للنادرة حافزاً للبناء(السياسية، الاجتماعية، الدينية، الفلسفية، الثقافية) تستمر إلى أهداف منشودة يسعي إليها المجتمع.

- رؤية الجاحظ لسلوك البخل تراوحت بين الإيجاب والسلب، مميزا بين حسن التدبر المحمود والغلو فيه المذموم.

- عكست طرف العنبري وأبي قطبه فيلويه الاتجاهات الأيديولوجية المسكوت عنها في المجتمع العباسي آنذاك.

- تظهر المفارقة في أسلوب الجاحظ مجسدة في شخصياته البخيلة؛ حيث وظّف أسماء تحيل إلى معاني رفيعة(العنبري مثلا)، في دور شخص بخيل يتصف بكل وصف ذميم، ما يحدث مفاجأة لدى متلقي النادرة ويبعث برسائل مشفرة تستوجب القراءة والتحليل.

- سلط الجاحظ الضوء في هذا النموذج على شخصيات ميسورة الحال أو غنية أحيانا تتخذ من البخل مذهبا تحاجج وترشد له، ما يجعلنا أمام مزاوجة غريبة "غنى يرافقه بخل"، وهو شكل موجود في المجتمع العباسي ينبذه الجاحظ.

- النتيجة سابقة الذكر تضعنا أمام بعد أيديولوجيّ هام، طغى على المجتمع في العصر العباسي، وهو "المادية" و"الجشع"، وحب المال واكتنازه، بُعْدٌ يتنافى مع ما هو معروف عن العربي الأصيل المسلم، الذي ينبذ هكذا سلوك ما يفتح المجال للقارئ للبحث في أسباب ذلك، والذي نجده في طيات كتاب البخلاء بمختلف قصصه بالإشارة لاختلاط العرب بالعجم عامة والفرس خاصة، وغيرها من الأسباب والأبعاد التي تتطلب البحث والدراسة.

- جسدت النادرة مواقف المبدع(الجاحظ) من حسن الأخلاق والمكارم المتجذرة في الفرد العربي الأصيل، وما أصابها من تدهور وانحطاط، متطلعا لتحسينها لبناء مجتمع متماسك قوي من جديد، ربما يمكن تصنيفها كرؤية مستقبلية لما يجب أن تكون عليه الأمة العربية في الوقت الراهن.

هوامش وإحالات المقال

1أبو عثمان الجاحظ، البخلاء، تح: طه الحاجري،دار المعارف، القاهرة، ط:5، 1990، ص:5.

2 ابن منظور، لسان العرب (مادة: ن.د.ر)،مج 5، ط دار صادر، ص:199.

3 أبو زيد الأنصاري، النوادر في اللغة، تح: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، ط1، 1981م – 1401هـ، بيروت، لبنان، ص47.

4 ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية تشكل النص السردي في ضوء البعد الأيديولوجي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط:1، 2005، ص:30.

5 ينظر: إلسبرغياكوف، المنحى السوسيولوجي في النقد الأدبي، تر:نوفلنيوف، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع:1، 1978، ص:73.

6 حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2001، ص:13.

7 ينظر: وديعة طه نجم، الجاحظ والحاضرة العباسية، دار الجاحظ، بغداد،(د.ط)، 1982، ص:149.

8 ينظر: سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي-الإمارات العربية المتحدة، ط:1، 2010، ص:22.

9 ابن منظور، لسان العرب، مادة: ب خ ل.

10PAUL Robert, Le petit Robert Dictionnaire de la Langue Française, rédaction A. Rey et J.Rey, d.Ebove. Paris, 1990, P: 141.

11 الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1988،1 ج8،ص:369.

12 ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: محمد هارون عبد السلام، دار الفكر، القاهرة، (د.ط) 1979، مادة (أَوَّلَ)، ج1، ص:86، وينظر: بن منزور، لسان العرب، مادة (أَوَّلَ)، ج3، ص:33.

13 نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص:230، نقلا عن: محمود علواش، دلالات التأويل في الفكر العربي المعاصر، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، 2015، ص:10.

14 ينظر: محمد بوعزة، تحليل الخطاب السردي تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم، الجزائر- لبنان، ط:1، 2010، ص:39.

15 ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص:115.

16سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص:74.

17 الجاحظ، البخلاء، ص:113.

18 ينظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط:1، 1991، ص:45.

19 محمد بوعزة، تحليل الخطاب السردي تقنيات ومفاهيم، ص: 82،79.

20 الجاحظ، البخلاء، ص:113.

21 المصدر نفسه، ص: 113.

22 المصدر نفسه، ص:115.

23 ينظر، سعيد عمري، الرواية من منظور نظرية التلقي مع نموذج تحليلي حول رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، كلية ظهر المهراز، فاس، ط:ض، 2009، ص:39-42.

قائمة المصادروالمراجع:

* القرآن الكريم برواية ورش.

01- إسماعيل بن حماد الجوهري، صحاح تاج اللغة صحاح العربية، تح:أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:3، 1004هـ-1984م، ج:2.

02- حسن أحمد ابن فارس بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة، تح:إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، (د.ط)، 2011، ج:1.

03- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط:1، 1991.

04- سعيد عمري، الرواية من منظور نظرية التلقي مع نموذج تحليلي حول رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، كلية ظهر المهراز، فاس، ط:ض، 2009.
05- سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984.
06- سيف محمد سعيد المحروقي، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط:1، 2010.
07- أبو عثمان الجاحظ، البخلاء، تح: طه الحاري،دار المعارف، القاهرة، ط:5،1990.
08- محمد بوعزة، تحليل الخطاب السردي تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم، الجزائر- لبنان، ط:1، 2010.
09- موزباني، معجم الشعراء، تع:ف.كرنكو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:2، 1982.
10- وديعة طه نجم، الجاحظ والحاضرة العباسية، دار الجاحظ، بغداد،(د.ط)، 1982.
11- PAUL Robert, Le petit Robert Dictionnaire de la Langue Française, rédaction A. Rey et J.Rey, d.Ebove. Paris